النَّصُّ القُرْآنِيُّ في الرِّوايَة العَربيّة المُعاصِرة ، اسْتِثْمَارُ أَحْدَاثٍ ، أَمْ إعَادةُ إنْتَاجِ خِطَابٍ

" رِوايَةُ أَلْواحٍ ودُسُر لأحْمَد خَيْرِي العُمري أنموذَجاً "

الدكتور : قويدر قيطون

قسم اللغة والأدب العربي

كلية الآداب واللغات * جامعة الوادي

****

من المعلوم أن النص القرآني يحتل مركزا مهما عند الحداثيين العرب ، لموقفهم المعروف من المقدّس ؛ خاصة وهميرونه حاجزا بينهم وبين تحقيق مشروعهم الحداثي ؛ لذلك كان أكثرَ النصوص التراثية تناولا ودراسة وقراءة ، ولعل أكثر الزوابع الفكرية التي أنشأها الحداثيون في البلاد العربية كانت بسبب ما أشاعوه من آراء تتعلق بالخطاب القرآني رفضا وتعطيلا أو تأويلا وتفسيرا ، أو تعاملا و توظيفا .

وفي ظل هذا التجاذب الكبير الذي أثاره الحداثيون حول مضمون النص القرآني باعتباره تراثا خالدا ، متجاوزا الزمكانية ، ومتصلا بالإنسانية ؛ لما له من الخصائص والصفات ما تجعله نصا استثنائيا عند المتلقين والعارفين والدراسين ؛ ولما له من حظوة وقداسة عند أهله ؛ تطالعنا بشكل متواتر تلك القراءات المتعدّدة الأشكال لهذا النص ، والتي قد تكون صادمة أحيانا ، وفاعلة متفاعلة أحيانا أخرى .

وإنَّ المتابع لمسيرة هذا النص عبر الأزمنة ليرى أن أكثر الأشكال شيوعا في تفاعل الأدباء معه ، هو ما يتم عن طريق التناص مع مضمونه لغة ، ودلالة ، وتعبيرا ، وصورة ، وأحداثا ، وأخبارا.

ولقد كان هذا الشكل مدعاة للكثير من الدراسات النقدية ، والأحكام الشرعية والفنية التي أقيمت على هامشه ؛ إلاَّ أنّني وأنا أتابع تعامل الدكتور أحمد خيري العمري مع النص القرآني ، رأيتُ أنّه يحمل معه أدوات جديدة في استنطاق مخبوئه ، والكشف عن مضمونه ، والسعي وراء دلالاته ، بما عبرّ عنه في كتبه المختلفة مثل : البوصلة القرآنية ، كيمياء الصلاة ، القرآن نسخة ثانية ، القرآن لفجر آخر ، ليطمئن عقلي ،أو مقالاته المتنوعة ، أو من خلال اعماله الإبداعية كرواية ألواح ودسر ، خاصة وهو يتخذ مواقف مناقضة ومعدّلة لآليات تعامل الحداثيين العرب مع هذا الخطاب .

لذلك كله رأيت أن أبحث في حضور هذا النص في الرواية العربية المعاصرة ، من خلال تناول رواية ألوح ودسر لأحمد خيري العمري ، ولأسأل حول ماهية هذا الحضور ، خاصة والرجل يجمع بين الحقول الثلاثة الفكري والإبداعي والنقدي :

هل تم ذلك فقط استثمارا لأحداث ، ورد ذكرها في القرآن ؟ أم هو إعادة قراءة وإنتاج لخطابه بما يتوافق مع دعوات التحديث والتجديد والمعاصرة ؟

فإن كان الأمر قد تجاوز حدود الاستثمار؟ فكيف استطاع العمري أن يوظف النص القرآني في الرواية المعاصرة بما يجدد حضوره ، وسطوته ،ويتفاعل مع فلسفته وقيمه؟ وقبل ذلك كله : ما الرسائل التي بعثها العمري للحداثيين العرب من خلال رواية ألواح ودسر في رده على مواقفهم من الخطاب القرآني؟

وتحقيقا لذلك سأتناول الأمر في ثلاثة محاور بعد أن أعرّف بكاتبنا ، تكون كالآتي:

1 -القرآن والتراث
2 -فلسفة العمري القرآنية وموقفه من تعامل الحداثيين مع القرآن.
3 -رواية ألواح ودسر استثمار لنص القرآن أم قراءة أخرى لمضمونه ؟

أولا: الكاتب أحمد خيرى العمرى[1]

أحمد خيري العمري كاتب وطبيب أسنان عراقي من مواليد بغداد في عام1970 .

تعتبر مؤلفات العمري إضافة كمية وكيفية لفكر النهضة الذي يعتبر مالك بن نبي من أهم رواده. تمكن من حمل خطاب النهضة إلى فئة أوسع من الفئة التي توجه لها مالك بن نبي بسبب لغته المميزة وبيانه الواضح، إضافة إلى أن اعتماده على التأصيل القرآني للنهضة جعل من أفكاره أكثر قبولاً.

من الأفكار المهمة التي وردت في كتابه **البوصلة القرآنية** فكرة التساؤل الإبراهيمي التي عرضها العمري كركيزة للإسلام الأول ممثلة في النبي إبراهيم الذي كان أول من أطلق عليه القرآن لفظ مسلم، والنبي إبراهيم في القرآن وبخلاف كل الكتب السماوية السابقة وصل إلى إيمانه عبر التساؤل ورفض الأجوبة السائدة، ويعتبر العمري أن هذا ركيزة أساسية للإسلام كله باعتبار إبراهيم هو المسلم الأول. كما أن فكرة النهضة لديه ، لها مفهوم ثقافي مرتبط بالثقافة الشعبية والأفكار السائدة، وهو يرى إن أسباب تخلفنا عميقة الجذور فيما يسميه "العقل الجمعي" المتراكم عبر القرون وهكذا فإن عملية النهضة تشمل أولا عملية تغيير المفاهيم السائدة عبر ما يسميه "الاستئصال والتأصيل" ويقصد بالاستئصال محاربة وتفنيد المفاهيم السلبية وبالتأصيل تعميق المفاهيم الإيجابية بالاعتماد على نصوص دينية.

يعتمد العمري في استنباطاته للمفاهيم من القرآن على الجذر اللغوي للفعل، فهو يعود إلى جذر كل لفظ قرآني ويقوم بعملية مسح للاستخدام

القرآني للفظ في كل المواضع ويخرج بنتائج مترابطة ضمن منظومة فكرية-قرآنية. من الأمثلة على ذلك تأصيله لمفهوم العقل في القرآن عبر اعتماده على الجذر اللغوي لكلمة عقل الذي يعني ربط، فهو ينتقل من هذا المعنى عبر إجراء مسح قرآني ليصل إلى أن العقل هو الربط بين الأسباب والنتائج.

ينتقد العمري ما يسميه المؤسسة الدينية التقليدية، التي يرى أنها تمثل إرثاً ضخماً يعود لتاريخ ما بعد الخلافة الراشدة وقد اختلط بالموروث الشعبي وغير الديني، وكذلك بالجهات الرسمية والسياسية، وهي تنوب عن الإسلام رسمياً وفكرياً وتحتمي بنصوصه رغم أن كثيراً من أفكارها -حسب العمري- تناقض المفاهيم الإسلامية الأصيلة.

وقد خصص جزءاً من مقالاته لانتقاد من يسميهم أدعياء التجديد، ويُعتقد أنه يقصد بذلك أفكار المهندس محمد شحرور وجمال البنا وجماعة القرآنيين .هجومه الأساسي على هؤلاء يستند على أن دعاواهم التجديدية التي تفتقد الضوابط الواضحة جعلت الناس تستنكر التجديد وتخلطه بالتفلت، وأن هذا لم يخدم التجديد الحقيقي المطلوب، فهؤلاء دعاة إلى الحياة الغربية لكنهم يُغَلِّفُون دعوتهم بنصوص دينية وقراءات انسلاخيةتلغي الشعائر والعبادات والأحكام القرآنية تحت ذرائع عديدة .

إضافة إلى نقده المتكرر للمفاهيم والأفكار الغربية الرائجة في البلاد العربية والإسلامية، وطرحه لإشكالات كثيرة على الحياة الغربية كما في سلسلة مقالات له بعنوان **نيويورك نيويورك**، وهذا النقد هو أساس أحد أهم كتبه **الفردوس المستعار والفردوس المستعاد.**

العمري معروف بغزارة الإنتاج وتنوعه، فقد أصدر في الفترة بين 2003-2008 ستة كتب لاقت رواجاً لافتاً وتنوعت بين البحث العلمي والرواية والرسالة الأدبية، بالإضافة إلى عشرات المقالات التي ينشرها في صحيفتي العرب القطرية والقدس العربي في لندن.

1. **البوصلة القرآنية : إبحار مختلف بحثا عن الخارطة المفقودة .** 2003دار الفكر، دمشق. وهو الكتاب الأول له، أحدث ردات فعل مختلفة بين الرفض والهجوم وبين الإعجاب والقبول، وكان سبب رفض البعض له هجومه الحاد على بعض المفاهيم التقليدية التي تخالف -حسب ما يقول- الخطوط العامة في القرآن، كما أنه قد دخل في تحليلاته حقل ألغام تاريخي (كما يسميه) وهو زمن ما بعد الخلافة الراشدة
2. **ليلة سقوط بغداد**2004 .، دار الرسالة ناشرون
3. سلسلة **ضوء في المجرة**(ستة عناوين) 2005 .

1. الذين لم يولدوا بعد.

2. إدرينالين.
3. يوم، شهر، سنة.
4. تسعة من عشرة.
5. كش ملك.
6. غريب في المجرة.

4. **الفردوس المستعار والفردوس المستعاد :ثوابت وأركان من أجل حضارة أخرى** 2005 .دار الفكر دمشق. وهو كتاب يعرض فيه قيم الحضارة الأمريكية ويبين تعارضها مع القيم الإسلامية التي يجب أن تكون نواة لنهضة إسلامية قادمة.
5. رواية **أبي اسمه إبراهيم**2006 .، دار الفكر، دمشق.
6. سلسة **كيمياء الصلاة** (خمسة عناوين) 2008، دار الفكر، دمشق. وقد نالت نجاحاً كبيراً بعد صدورها .

1. المهمة غير المستحيلة.
2. ملكوت الواقع: ممهدات وحوافز قبل الانطلاق.
3. عالم جديد ممكن.
4. فيزياء المعاني.
5. سدرة المنتهى.

7. رواية **ألواح ودسر** .دار الفكر، دمشق، 2009.

8. استرداد عمر.
9. سيرة خليفة قادم.
10. طوفان ﷺ.
11. القرآن لفجر آخر.
12. لا نأسف على الإزعاج
13. شيفرة بلال.
14. السيرة مستمرة
15. ليطمئن عقلي
16.

ثانيا: القرآن الكريم والحداثة :

اهتم الباحثون على مر العصور بالنص القرآني ؛ تفسيرا وتأويلا، تحليلا وقراءة، من حيث النظرية والتطبيق، وتعددت مناهجهم في ذلك بتعدد خلفياتهم الثقافية والمعرفية، وتعدد زوايا الرؤية عندهم.

فكان من الباحثين المعاصرين من وضع الأسس النظرية الحديثة لتحليل الخطاب القرآني، ومنهم من طبق هذه المناهج الحديثة ؛ كعلوم الألسنياتوالس يميائيات والمنهجية البنيوية على النص القرآني، بغرض الكشف عن البنية اللغوية لهذا النص وشبكة التوصيل المعنوية والدلالية التي ينبني عليها، فنتج عن ذلك قراءات حديثة

ومعاصرة للخطاب القرآني، مثل قراءة محمد أركون وقراءة الحاج حمد، وناصر حامد أبوزيد وغيرهم.

هذا الاهتمام ي أتي في سياق بحث الحداثيين العرب عن ذواتهم داخل هذه الفوضى التي صنعتها فلسفة الحداثة ، وهي تطلب المصداقية لخطابهامن الحداثة الأوربية التي تتخذها أصولا لها وهو أمر " يجعلها: " لاتستطيع الدخول في حوار نقدي تمردي مع معطيات الثقافة ال عربية لكونها لاتنتظم في تاريخها ، إنها إذا تقع خارجها وخارج تاريخها لا تستطيع أن تحاورها حوارا يحرك فيها الحركة من داخلها ،ولذا يقول أحد الحداثيين العرب: " فطريق الحداثة عندنا يجب أن ينطلق من الانتظام النقدي في الثقافة العربية نفسها ، وذلك بهدف تحريك التغيير من الداخل ، لذلك كانت الحادثة بهذا الاعتبار تعني أولا وقبل كلّ شيء حداثة المنهج وحداثة الرؤية ، والهادف تحرير تصورنا للتراث من البطانة الايديولوجية والوجدانية التي تضفي عليه ، داخل وعينا ، طابع العام والمطلق وتنزع عنه طابع النسبية والتاريخية "[2]

المقصود بالقراءة الحداثية تلك المدرسة التي تبنَّى أصحابُها فلسفات ومذاهب غربيّة حديثة، وحاولوا تطبيقها في تفسير القرآن الكريم، متجاوزين الأدوات العلمية التفسيرية المسطَّرة عند أهل الاختصاص في هذا العلم، ومن أبرز أسماء هذه المدرسة الذين تعاملوا مباشرة مع الآيات القرآنية: محمد أركون، ومحمد شحرور، ونصر حامد... وغيرهم.

وقد يعبَّر عن القراءة الحداثية للآيات القرآنية (بالقراءة الحديثة) أو (القراءة المعاصرة) أو (القراءة الجديدة)

إذا تساءلنا ماهي أهم الأحداث الفكرية والتاريخية التي ساهمت في بلورة التوجهات الحداثية في تحليل الخطاب القرآني؟

يرى أحد الباحثين المهتمين بالدراسات القرآنية أن أول ما ظهر هو التفسير الموروث- أو التقليدي كما يسميه البعض- وهو يعتمد على نسق ثقافي ومعرفي ينتمي إلى الحضارة الإسلامية، فهو تفسير لا تدخله أي معارف جديدة، وبالتالي فإن تصوراته للعالم - فيما دون المستوى العقدي- تنتمي إلى عالم آخر، إلى التاريخ بصراعاته وخلافاته، وهو يفسر استمرار حضور التاريخ الفكري- المذهبي وربما السياسي-، في كل ما يمكن وصفه بالتفسير التقليدي بهذا المعنى، إنه التفسير الذي لا يتصل منهجيا بالمعرفة الغربية الحديثة أو المعاصرة.

ثم ظهر بعده ما يسمى بـ" التفسير العصري" والذي ولد بتأثير استعارة من نتائج المعرفة الغربية الحديثة، لكن دون الاستفادة من المسألة المنهجية، لكنه ما اكتسب اسم المعاصرة حتى سك مصطفى محمود في مصر تعبيره" التفسير العصري" في السبعينيات من القرن المنصرم، والمتابع للتفسير العصري لا يجد تحولا على المستوى المنهجي، ما تزال الآلية والأدوات المستخدمة في التحليل والتفسير هي هي، ولكن الذي تغير هو تصور المفسر للعالم world view، ومن الواضح أن الأدوات المنهجية التقليدية لم تساعده على إسقاط رؤيته

الجديدة للعالم، لكن ما استطاع القيام به هو إجراء تأويلات على تلك الآيات التي تتصل بتصوره الجديد عن العالم.
أما " القراءة المعاصرة" فهي شيء جديد كليا، جديد على مستوى الأدوات والمناهج ؛ إذ يحيلنا مصطلح" القراءة" إلى اللسانيات الحديثة، واللسانيات هي في المحصلة مناهج ونظريات تمثل بمجموعها أدوات بحث، يضاف إلى هذه الأدوات تصور جديد للعالم، ليس هو التصور الذي وجد في"التفسير العصري" بل هو تصور راهن متأثر بحصيلة التصور الغربي وحداثته للعالم، كما انتهى إليه اليوم، وتعود بدايات ظهور القراءة المعاصرة إلى الأربعينيات، وقد يكون الفضل للكاتب السوري"محمد شحرور" سك مصطلح"القراءة المعاصرة [3]

إلاّ أننا نجد من الحداثيين العرب من يطالب بالكف عن النظر في الخطاب القرآني كون قد استنفد ممكنات التفسير والتأويل كما يدّعي ، فيقول: " وإذ يظن محمد عابد الجابري ونصر حامد أبو زيد وأبو يعرب المرزوقي ومحمد شحرور ن وكثيرون غيرهم ، أنّ معركة النص الديني لاتزال مفتوحة على ممكنات الاستئناف ، وهي مفتوحة حتى أمام القوى العقلانية والعلمانية لتخوضها وتدلو بدلوها ، فإنّي على خلاف ذلك الظّن ، أفضّل اقتراح فرضيات عمل أكثر معقولية وتواضعا .

بكل تجرّد ، وبعد كل هذا التاريخ الطويل للنص القر آني الذي صيّره المسلمون نصّاً مغلقا ، بل سلطة مطلقة ، يتوجب الاعتراف في الأخير بان تفسيرات ، وتأويلات الخطاب القر آني قد استنفدت محاولات العصرنة والتحيين ، وماعاد يفيد بالتالي أن نضيف إليه فهما جديدا..[4]

بل ويذهب أكثر من ذلك باعتباره الخطاب القرآني نصا تعبديا وحسب ، وأن المشكلة في إضفاء صفة الدستورية عليه ، بما قيد الآراء والتصورات " ولعل التعصب الذي يبديه عدد من المسلمين غالبا أو أحيانا حول المفاهيم السياسية الواردة في الخطاب القرآني ، لايعدو أن يكون تغطية على أحكام نصّ صيّرناه مقدّسا وجعلناه مؤبّدا ، مع أنه لايناسب سوى المستوى النفسي والاجتماعي واللغوي لإنسان العالم القديم " [5]

وبعيدا عن هذا الرأي المتعصّب الذي ينكره اغلب الحداثيين أنفسهم ؛ فإننا نسجل هنا أنه من أهم سمات القراءة الحادثة للنص القرآنية ما يأتي:

1 سيادة العقل في العملية التأويلية.
2 +الغموض والتضارب المنهجي

ثم إن عملية مراجعة لمنتج القراءات الحداثية للنص القرآني تكشف أن من أهم أهداف هذه القراءات :

1 ـ إعادة قراءة النصّ القرآني.
2 ـ القطيعة المعرفية بالتراث القرآني وتضخيم الآراء الشاذة.

ثالثا: فلسفة العمرى القرآنية وموقفه من تعامل الحداثيين مع القرآن.

كان من الضروري جدا أن أقف عند رؤية أحمد خيري العمري للنص القرآني ، وأن أحدد موقفه من الحداثيين العرب ، ومن طريقة تعاملهم مع القرآن الكريم ، كي يكون هذا أرضية لفهم حضور النص القرآني في رواية " ألواح ودسر ".

ومن الطبيعي أن لا أطيل بالتفصيل في هذا الأمر ، لأنه ليس من السهل مطاردة رؤية العمري حول ما يقترحه من تعامل مع النص القرآني ، لأن ذلك يستدعي مني أن أتابع كلَّ ما أنتجه في هذا الموضوع ، ولكنّي سأذكر ما يطلعنا على هذا الموقف المتميّز.

فالعمري لا يرى أسوأ من عملية التقليد غير الواعية ، تحت مسمى التجديد والتحديث ، فقد تبطن هذه الدعوات وهذه المناهج ما قد لا تظهره ، فبدعوى التجديد والحداثة يتم السعي للترويج للأفكار الليبرالية الغربية الغريبة عن المسلم وحياته ومقدساته ، إذ يقول: "ليس هناك أسوأ من تقليد مذهبي رتيب، إلا تجديد مزعوم بلا ضوابط ولا شروط.. ويبدو أن جزءاً من قوة الفكر التقليدي(القوي أصلاً) مستمد من هذا التجديد الذي صار يعد بمثابة حصان طروادة لإدخال الأفكار الليبرالية إلى الرأس المسلم"[6]

فالتجديد الحقيقي الذي يقترب من النص القرآني كما يراه العمري يجب أنم يكون أرفع من إضافة رتوش تجميلية اعتادها الناس منذ قرون كثيرة ، بل إن لهذا التجديد أسس وغايات ،وفي هذا يقول: " ضوابط هذا التجديد يجب أن تنبع من النص القرآني نفسه – فهذا النص، الذي لم يدخله تغيير ولا تحريف – هو السلطة الأولى التي ينبغي للتجديد (وللمجددين) أن يخضعوا لها.. داخل النص القرآني، يمكن إيجاد ضوابط وشروط تحدد للتجديد طريقة: نقطة انطلاقه، وهدفه النهائي.. لا أستطيع أن أتصور أن هناك من يمكنه الادعاء أنه يمتلك-الآن- مفاتيح هذه الشروط القرآنية للتجديد، لكن هذا يجب ألا يمنع سبر أغوار القرآن الكريم، من إيجاد شروط التجديد، علماً أن هذا السبر بحد ذاته هو قراءة جديدة، أي إنه تجديد أيضاً بطريقة ما.. وهذا يقودنا إلى نقطة البداية من جديد.. فلكي يكون هناك تجديد، يجب أن يكون هناك شروط وضوابط، ولكي تجد الضوابط عليك أن تقرأ القرآن "من جديد"، وهذا كله يضعنا في

ما هو أشبه بحلقة مفرغة.. كيف تقرأ القرآن الكريم من جديد،لكي تستخرج ضوابط التجديد، وأنت تحتاج إلى هذه الضوابط أصلاً في القراءة؟" [7]

فالقراءة الحداثية للنص القرآني ليست قراءة بسيطة كما يتصورها الكثيرون ، ويمارسها البعض ، لأنها قراءة تتعامل مع نص مختلف في بنيته ، ووجوده ، وعلاقته بالناس ، فهو منهج حياة لا نصا ترفيهيا آنيا .
إذن، بما أن هذا النص هو "منهج حياة" – فإن أي قراءة منسجمة معه يجب أن تضيف معنى لحياتنا على هذه الأرض، يجب أن تثريها "حياة" وفاعلية.. كلما كانت "القراءة" تزيد الفاعلية والتفاعل مع الحياة، كانت منسجمة مع الهدف من نزول هذا النص.. وبالتالي تكون قراءة "تجديدية" سواء كانت قرأت في القرن الثاني الهجري أو الخامس عشر أو العشرين بعد المئة ،فالمهم هو أن تكون القراءة فاعلة [8]

ووفقا لذلك يرى العمري أن التجديد المنشود المتعلق بالقرآن هو : " هو ذلك الذي يتفاعل مع العالم بقصد تغييره.. "تجديد متفاعل مع العالم" وذلك لأن أمر هذا التفاعل دوماً ينتهي إلى "العالم" هو الذي يغير فهمنا للنص ويملي شروطه علينا وعلى فهمنا له..

وعليه فمنهج القراءة الحداثية التجديدية هي التي تحدد تعاملنا مع " قراءتنا هي التي تحدد وجهة الطريق الذي سنسلكه.. أما خيار "الانسلاخ" عنه (عن القرآن) عبر قراءة إلغائية انسلاخية – أو خيار الالتحام به وبمضامينه..

الفرق بين القراءتين هو فرق بين منهجين وأيضاً بين نتيجتين لاحقتين مختلفتين.. {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ} [الأعراف: 175/7]..

رابعا: النص القرآني في رواية ألواح ودسر إعادة بناء مشاهد أم قراءة

رواية ألواح ودسر "رواية استثنائية عن عالم استثنائي ومختلف. قد يكون عالمنا الحقيقي بعد أن نزيل عنه أقنعته ونزيح عنه أصباغه. عالم تسقط فيه الجدران الوهمية بين الزمان والمكان، فإذا بالماضي يصير بصيغة الحاضر، والحاضر يتلبّس صيغة المستقبل.
للوهلة الأولى، ستكون الرواية عن سيدنا نوح -عليه السلام-، وسفينته التي أنقذت الإنسانية من الطوفان، وكلنا نعرف هذه القصة، لكننا سنجد أنفسنا فجأة جزءًا منها، بل إننا سنجد أن واقعنا المعاصر كله هو استمرارٌ لتلك القصة؛ كما لو أنها لم تنتهِ قَط، كما لو أنها تتجدد دومًا، وإن تبدّلَت أشكال الطوفان، وتبدّل معها شكل السفينة.
القصة تروَى من وجهة نظر طفل صغير عاصَرَ الأحداث وقتها، لكن سرعان ما نكتشف أن هذا الطفل يسكن جزءًا من أعماقنا، وأن في كلٍّ منا

بقايا شيء منهواية استثنائية عن عالم استثنائي ومختلف. قد يكون عالمنا الحقيقي بعد أن نزيل عنه أقنعته ونزيح عنه أصباغه. عالم تسقط فيه الجدران الوهمية بين الزمان والمكان، فإذا بالماضي يصير بصيغة الحاضر، والحاضر يتلبّس صيغة المستقبل "

تعدّ رواية ألواح ودسر من أهم ما كتب الدكتور أحمد خيري العمري ، لما نالته من قبول لدى المتلقين ، على الرغم من طولها نوعا ما ؛ إذا تفع في ما يقارب أربعمئة صحيفة ، من الحجم المتوسط ، تم نشرها في عام2009 عن دار الفكر .

بنيت أحداث الرواية على شخصية الطفل " نور " الذي يروي قصة الطوفان ، تبدأ بحلم ، ثم تنغمس في الواقع ، تستدعي قصة نوح بشكل عجيب ،وكأن ذلك الطفل الصغير يعايشها ويراها رأي العين ، تتجسّد أمامنا برمزية جلية وجميلة ، وهي تسقط قصة نوح عليه السلام كما وردت في القرآن على حياتنا المعاصرة ، لنسأل هنا:

هل كانت هذه الرواية مجرد تناص مع قصة نوح ، بإعادة تشكيل احداثها بطريقة مختلفة ؟ أم هي قراءة جديدة لخطاب قرآني ، وإعادة إنتاج له بما يوافق المخاطَب والمقام؟

لن أقف عند البنية السردية لهذه الرواية ، فليست تلك غايتي ؛ وإنما سأستحضر من المشاهد ، ما يتناص شكلا مع قصة نوح عليه السلام ، لنرى هل كان ذلك مجرد استثمار لها ، أم أنّ هناك مقصدية تقف وراء ذلك التوظيف ؟

فبشكل عام يمكن توصيف الرواية بما يأتي:

-نور الطفل بطل الأحداث يستدعي اسم نوح الذي كان يراه مناما ويقظة .
-نوح لم يكن سوى رجلا خيّرا يُعَلِّم الناس ، ويريد لهم النجاة .
- الطبقية : الأسياد والأراذل
- الحياة الاستهلاكية المادية التي تعظم المادة وتقصي الروح.
-سيطرة الرجل الأبيض .
- أسماء شخصيات بدلالات معاصرة "السيدة نميمة - غلاظة - السيد عبد المال - السيدة تفاهة ...
تبدأ الرواية باستدعاء قصة نوح والطوفان والسفينة ، ذلك الرجل الذي مدّ يده للناس لينقذهم مما هم فيه ، من قبل أن يدهمهم الطوفان ، لم يكن الطوفان سوى طوفان الحياة المعاصرة الذي اخذ الناس وهم في غفلة عن أيادي الخير التي تمنحهم فرصة للنجاة :" كانت المياه تغمر كلّ شيء ، وتضرب كلّ شيء ، كنت قد ركبت السفينة في اللحظة الأخيرة قبل أن تغمر المياه رأسي وأغرق ، لهثت فور صعودي إلى السفينة وتنفست بعمق ، ثم التفت لأرى طوفان المياه يغمر كل شيء، كانت هناك بعض الرؤوس الطافية تصارع مدّ المياه... مددت يدي لأساعدهم على الركوب ، لكنهم رفضوا .. رفضوا أن يأخذوا يدي ، أو أيا من الأيدي التي كانت

تمتد لتساعدهم ، رمى احدهم بطوق نجاة مربوط بحبل من حبال السفينة ن لكنهم رفضوا أيضا ..
بين مد المياه المتلاطم ،استطعت أن أرى تلك النظرة على وجوههم ، نظرة لا أتصوّر أنني سأنساها أبدا " [9]

هذا المشهد الذي يُروى على لسان الطفل نور ، يستدعي كما هو واضح قصة الطوفان والسفينة في قصة نوح عليه السلام .

قال تعالى : (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ) .[هود:40-43]

فالنص الذي يروي ما حدث في عهد نوح عليه السلام ، من أمر السفينة وقومه ، والطوفان وابنه ، لم يعد بهذا التوظيف مشهدا حكائيا قديما ملفوفا بزمانه قابعا في مكانه ، وإنما هو نص حي يروي تفاصيل مايحدث في عصرنا أيضا ، حيث ينغمس الناس في دنياهم ، رافضين الأيادي التي تمتد لتنقذهم مما هم فيه ، ويصرون على ذلك حتى تبتلعهم الآثام ، ويتيهون في الضلال ، فقد تتغير الوجوه والأسماء ، ولكن الوقائع نفسها التي حدثنا الخطاب القرآني منذ زمن بعيد ، هي التي تتكرر أمامنا اليوم .

بهذا النص تطالعنا الرواية بهذه الإحالة المباشرة على قصة نوح عليه السلام ، خاصة والكاتب يجعل نوحا إحدى الشخصيات المهمة التي تبنى عليها هذه الرواية .

" سلمت أمي عليه فرد التحية مع ابتسامة لم تكن في وجه أمي عندما ألقت السلام ، زاد ذلك من الطمأنينة عند أمي عند أمي ، فقللت من عبوسها قليلا ، وقالت له : إنّ الناس كلها تدلني عليك ياسيد نوح ، وأما صابر هنا قالت لنا غنك رجل مبروك ، وقالت إنّ أحدا لن يتمكن من مساعدتنا كما تستطيع أنت "

رد نوح بهدوء: تفضّلي سيدتي إنَّ الله هو الذي يساعدنا حين نساعد انفسنا ... بدت لي الكلمة غريبة ، من هو الله ؟ كيف يساعدنا ، حين نساعد انفسنا؟ هل هو كاهن أو عرّاف أو صديق من أصدقاء السيد نوح؟ "[10]

ومع هذا المشهد الذي يلتصق بشكل بين مع قصة نوح ، وهو يحاول أن يصحح عقيدة قومه بسوقهم إلى الإيمان الواحد ، يجد القارئ نفسه ينتقل مباشرة ودون أن يشعر بأن يصبح نوح واصفا لهذا العالم الذي نعيشه في القرن 21: " ...ربما ابنك ليس مريضا سيدتي ، قال نوح بوضوح.. ربما العلة ليست فيه ، ربما في العالم الذي نعيشه فيه

هو المريض ، ربما العلة في هذا العالم الظالم ، وربما كان ابنك لايزداد طوله احتجاجا على كل هذا ، ربما ابنك أنقى وأصفى من أن ينمو في هذا العالم الوسخ ، اعتبري أنه مثل نبتة ترفض أن تنمو في مستنقع آسن ..."[11]

تماما مثلما كان قوم نوح ينظرون إليه باستهزاء واستصغار ، ينظر الناس إلى الطفل نور قصير القامة على باستصغار وغرابة ، وكأن العالمين اللذين عاش فيهما نوح النبي ونور الطفل على نسق واحد من الانحراف والشذوذ.

هذا العالم الموحش الذي يعشش فيه الظلم والجهل ، والانحراف العقدي والأخلاقي ، لابد له من إصلاح ، وهو في هذا العصر لا يمكن أن يكون إلا العلم ، لذلك كان على نوح القرن21 أن يؤسس مدرسة لتعليم الناس وتربيتهم : " قالت نميمة : صحيح هل سمعتن ما اعلنه السيد نوح مؤخرا ؟ يقول إنه سيفتح مدرسة جديدة هنا في الحي أو الحي المجاور على الأغلب .. ألم تكن مدرسته مجانية وللفقراء الأراذل ؟ قالت أمي كأنها تحاول أن تتذكر كما لو أنها لم تذهب إليه هناك ..."[12]

ومع هذا المنهج الذي سيتبعه نوح في هذا العصر بنشر العلم والمعرفة لتغيير حال الناس ، يتحسس السادة الخطر فيتخذون منه موقفا معاديا حماية لمصالحهم كما ادّعى قوم نوح حماية آلهتهم " إنَّ آلهتكم أيها السادة تطلب منكم التدخل لوضع حدّ لهذا الصابئ المدعو نوحا ، لقد تمادى عندما لاحظ صبرها عليه ، والآن جاء دورنا نحن لنوقفه عند حدّه ونكون حراسا لآلهتنا .."[13]

والملاحظ أن الكاتب قد اختار أسماء شخصياته بعناية ، فهي على غرابتها تسترعي الذهن بما تحمله من دلالات عميقة تربط بحبل بين عصر نوح عليه السلام ، والعصر الحالي :

السيدة نميمة ، السيدة تفاهة ، السيدة غلاظة ، السيدة حيزبونة ، السيد جشع ، السيد عبد المال ، السيد إمّعة..

وكل هؤلاء يتفاعلون ليعبروا عما في هذا العالم من سوء وهو يزرع الطبقية ، ويرفض التغيير والتنوير ، ويحارب المعرفة ويستهزئ بالصالحين الفاعلين ، فكما كان قوم نوح ينظرون إلى دعاة التغيير والحق على أنهم أراذل لاقيمة لهم ، ينظر المستبدون الارستقراطيون إلى أهل العلم والمعرفة والحق والنور في هذا الزمان على أنهم أراذل الناس:

" انطلقنا بثلاث عربات استأجرها والدي وفي طريق خروجنا من المدينة لاحظت للمرة الأولى أن الأحياء السكنية النظيفة الراقية تشكّل عددا محدودا من الأحياء ، بينما معظم الأحياء المتبقية هي أحياء فقيرة تشبه حي الأراذل حيث ذهبنا وأم صابر أو أحياء أفضل قليلا .."[14]

وهو ما يتناص مع قوله تعالى : " حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ[هود:26-29].

وعلى الأسلوب المثير يمضي الكاتب في روايته يستدعي قصة نوح ، قارئا للخطاب القرآني وباعثا له ، بطريقة مشوقة في هذا العصر الذي نعيشه ، ليربط بين واقع نص حدث منذ قرون ، وبين عصر لاتزال وقائعه ماثلة للعيان ، وليسقط ذلك النص الذي ظنه الحداثيون قد انتهى ، على مجريات هذا العصر فيعالج ، الطبقية، والاحتكار والعبودية التي قد كانت فيما مضى آلهة لكنها الان مادة وإعلاما ، وسيطرة المادية والتجارة والجشع وغير ذلك مما يستدعي البحث عن أفق جديد ، وعن سفينة جديدة تعبر بالناس من هذا العصر الموغل في الفساد والظلم :

" لدهشته وجد السيد عبد المال أنّ بعضهم غير مدرك لخطورة الأمر ، كاد يضرب السيد " إمعة " الذي كان قد عاد للتو من زيارة للمتجر الكبير الذي يسمونه المول الذي افتتح مع افتتاح قصر السيد أبرهة ، كان السيد إمّعة يتحدّث بإعجاب شديد عن مول " القليس " وعن تنظيمه وترتيبه " [15]

وبهذا تجمع هذه الرواية بين الواقعية والعجائبية ، والخطاب القرآني النص المقدس لتوظفه في عرض أدبي معاصر لقصة من قصص الأنبياء عليهم السلام ، على نحو يستثمر هذه القصة ومعانيها العامة ، ليجعل لها قنوات ارتباط مع وعي الإنسان المعاصر .

فالرواية تتحدث عن أحداث قد تقع في أي زمان وفي أي مكان ، فأحداثها وقعت في زمن نوح وتحدث القرآن عنها ، وهي تقع الآن أيضا ، والقرآن يتحدث عنها ، ويصفها ، أيضا مثلما وصفها من قبلُ .

وعلى هذا فإن حضور النص القرآني في رواية أولج ودسر لم يكن حضورا شكليا لهندسة احداث جديدة ، واستثمار وقائع ، لتأثيث نص روائي ، وإنما كان التوظيف أبعد من ذلك بان أصبح النص فاعلا متفاعلا مع واقع هذا العصر .

خاتمة :

بعدما رأينا ، يمكن أن أ سجل ما يأتي:

- إن النص التراثي يظل مفتوحا ، قابلا للفعل وللتفاعل ، وإعادة البعث والإنتاج إذا وقع بين يدي من يحسن توظيفه واستثماره .

-لعل من أكبر أخطاء الحداثيين العرب أنهم عَادَوْا النص التراثي وخاصة القرآني ، بأن حاولوا منذ البدء تحييده تماما من المشهد الثقافي والحضوري للأمة ، بينما كان عليهم أن يبحثوا أولا في ادواتهم ، وأن يسائلوا مناهجهم التي اعتمدوها في تعاملهم مع هذا التراث.
-تمنح الرواية العربية المعاصرة مساحة متميزة لاستيعاب النص القرآني ، لتوظيف خطابه ، وإعادة تشكيله بما لايتعارض مع قدسيته لتقديمه للمتلقين.

ماقام به العمري في رواية ألواح ودسر أسقط نهائيا ذلك الاعتقاد الذي أشاعه بعض متعصبي الحداثة بقول أحدهم :" وإذ يظن محمد عابد الجابري ونصر حامد أبو زيد وأبو يعرب المرزوقي ومحمد شحرور ن وكثيرون غيرهم ، أنّ معركة النص الديني لاتزال مفتوحة على ممكنات الاستئناف ، وهي مفتوحة حتى أمام القوى العقلانية والعلمانية لتخوضها وتدلو بدلوها ، فإنّي على خلاف ذلك الظّن ، أفضّل اقتراح فرضيات عمل أكثر معقولية وتواضعا .

بكل تجرّد ، وبعد كل هذا التاريخ الطويل للنص القر آني الذي صيّره المسلمون نصّاً مغلقا ، بل سلطة مطلقة ، يتوجب الاعتراف في الأخير بان تفسيرات ، وتأويلات الخطاب القر آني قد استنفدت محاولات العصرنة والتحيين ، وماعاد يفيد بالتالي أن نضيف إليه فهما جديدا.."[16]

المراجع

- القرآن الكريم رواية حفص عن عاصم

1- ينظر: وكيبيديا : أحمد خيري العمري https://ar.wikipedia.org ، تمت مشاهدتها يوم 2021/04/15 في الساعة22:26.
2- محمد عابد الجابري ، التراث والحداثة دراسات ومناقشات ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ط1 ، بيروت ، 1991 ص16.
3 - صليحة عاشور ، الخطاب القرآني والمناهج الحديثة دراسة نقدية ، أعمال الملتقى الدولي الثالث في تحليل الخطاب ، جامعة قاصدي مرباح ورقلة ، 2007،
4 - سعيد ناشيد، الحادثة والقرآن ، دار التنوير للطباعة والنشر، ط1 ، لبنان ، 2015، ص36.
5 - نفسه ، ص 38.

6- أحمد خيري العمري، قراءة النص الديني: بين الانسلاخ والالتحام ، https://akomari.com/2016/08/13، تمت مشاهدته يوم2021/04/13الساعة23:42.

7 نفسه.
8- نفسه.
9- أحمد خيري العمري ، ألواح ودسر ، دار الفكر ، دمشق ، 2009، ص 1.
10- المصدر السابق ، ص 30
11- نفسه، ص35
12- المصدرالسابق ، ص88
13- نفسه ، ص 96.
14- نفسه ، ص 54.
15- المصدر السابق ، ص 190.

16- سعيد ناشيد، الحداثة والقرآن ، دار التنوير للطباعة والنشر، ط1 ، لبنان ، 2015، ص36.